

كراتشكوفسكي و الشرق الإسلامي

محمد سليمان حسن

ملخص عام:

يحاول هذا البحث. رصد علامة من أعلام الاستشراق الأوروبي بعامّة، والروسي بخاصّة. محاولاً الوقوف عند أهم الأفكار التي تناول فيها (كراتشكوفسكي) الشرق الإسلامي والعربي منه على وجه الخصوص.

ونحن نحاول بدورنا، رصد حياة هذا المستشرق بشيء من التكتيف، ثم نتناول تحديداً اصطلاحياً لمفهوم الاستشراق وفق المعايير المتفق عليها عند عامة المستشرقين. ورأي (كراتشكوفسكي) في تحديد ماهية الاستشراق كمصطلح. بعد ذلك نعمل على إبراز رسم تاريخي لتاريخ الاستشراق في زمن (كراتشكوفسكي) والمدارس الاستشراقية التي أفردت لهذا العلم، مع رسم جدل العلاقة بين أعلام الاستشراق الروسي وبعض الشخصيات التاريخية العربية التي ساهمت في تنمية حقل الدراسات الاستشراقية في روسيا، لنختم البحث بدراسة للعلاقة الوطيدة والهامة التي ربطت بين (كراتشكوفسكي) وشاعرنا (المعري) من خلال رحلة البحث التي قام بها (كراتشكوفسكي) لتقصي أعمال المعري ومخطوطاته في العالم العربي.

- كراتشكوفسكي: حياته ومؤلفاته (1)

يلقب (إغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكي) بـ (شيخ المستعربين الروس) ولد في (فيلينوس) عاصمة (ليتوانيا) عام /1833/ وتوفي عام /1951/. عاش حياته الأولى في (طشقند) مع أبيه حتى عام /1888/ وهناك بدأ تعليمه الأولي. ثم تابع تعليمه الجامعي وأنهاه في جامعة (بترسبورغ) عام /1905/. متخرجاً من قسم اللغة العربية في كلية الدراسات الشرقية، ثم قدم رسالته للمجستير عام /

1908/ عن الشاعر (الوأواء دمشقي).

وصل إلى (بيروت) في (لبنان) في شعر تموز عام /1908/ في رحلة علمية اقترحها عليه أستاذه المستعرب (روزن). وهنا في الشرق العربي التقى العديد من العلماء والأدباء والمفكرين العرب، والمستعربين من أوروبا الغربية. ففي جامعة (القديس يوسف) في بيروت التقى المؤرخ البلجيكي (لامنس) والفرنسي (رونزفال) والإيطالي (نلينو).

ومن المفكرين العرب التقى كلاً من: لويس شيخو، جرجي زيدان، محمد كرد علي، أمين الريحاني، إسعاف النشاشيبي، وغيرهم. واستمرت صلاته ببعضهم لأغراض البحث العلمي. وبعد ذلك، عمل (كراتشكوفسكي) أميناً لمكتبة اللغات الشرقية في جامعة بطرسبورغ، وأستاذاً للغة العربية في نفس الجامعة. وفي عام /1921/ انتخب عضواً في أكاديمية العلوم السوفيتية، وانتخبه المجمع العلمي بدمشق عام /1923/ عضواً فيه، كما كان عضواً في العديد من الأكاديميات والجمعيات العلمية.

أمضى (كراتشكوفسكي) جل حياته الفكرية يعمل في حقل الدراسات العربية. ففي حقل المخطوطات والكشف عنها وتحقيقها، كان له الفضل في اكتشاف مخطوط (المنازل والديار) للأمير السوري (أسامة بن منقذ). وكذلك مخطوط (رسالة الملائكة) لأبي العلاء المعري. وقام بنشر كتاب (البديع) لابن المعتز.

وفي مجال المؤلفات، قدم (كراتشكوفسكي) عملاً على غاية الأهمية في حقل المخطوطات العربية، ألا وهو كتابه (مع المخطوطات العربية) الذي يعتبر مسيرة ذاتية له، قدم فيه موقفاً شاملاً من الشخصية العربية والإسلامية، موقفاً مشرفاً للحضارة والتراث العربي الإسلامي. كما ترجم (القرآن) الكريم إلى اللغة الروسية، وكذلك كتابه (تاريخ الأدب الجغرافي العربي).

- الاستشراق لغة واصطلاحاً:

لم ترد كلمة (الاستشراق Orientalism) المشتقة من مادة (ش ر ق) في أي من المعاجم القديمة. وربما كان المعجم العربي الوحيد الذي يشير إلى واحد من مشتقاتها هو معجم (متن اللغة) للشيخ أحمد رضا. وفعل (استشرق) العربي مشتق من كلمة (الاستشراق) المترجمة لكلمة (orientalism) الإنكليزية، و (orientalisme) الفرنسية الحديثة العهد، واستخدمت كلمة (مستشرق) ترجمة لكلمة (orientalist) لتصف المشتغل بهذا الحقل المعرفي.

ومما يجدر ذكره، أن أول استعمال لكلمة (مستشرق) في اللغات الأوروبية يعود إلى عام /1630/ عندما أطلق على أحد أعضاء الكنيسة الشرقية أو اليونانية. وظهر المصطلح في اللغة الإنكليزية عام /1779/ والفرنسية عام /1738/.

والمتنب لمصطلح (الاستشراق) في الثقافتين الغربية والعربية، يلاحظ أن هذا المصطلح يستخدم ليشير إلى أمور هي:

يشير إلى النزعة التي غلبت على فن الرسم الأوربي التي قامت على استلهم الشرق باتخاذ موضوعاً فنياً أثيراً لديها.

171

العربي القديم في القوقاز استطاعت أن تحمل حتى أيامنا، اللغة العربية الفصحى التي لا تستخدم في التخاطب العام في موطنها في البلاد العربية، أما في شمال القوقاز فقد عاشت اللغة العربية حياة كاملة لا في الكتابة فحسب، بل وفي الحديث أيضاً (4).

- تاريخ الاستعراب الروسي:

لقد مر الاستعراب الروسي بمراحل متعددة امتدت من فترة قبل الثورة البلشفية على مرحلة متقدمة في تاريخها. وساهم فيه رجالات عدة من داخل روسيا والاتحاد السوفيتي ولاحقاً من خارجها.

الجامعة الاستعرابية أنشئ أول قسم للغة العربية في جامعة (خاركوف) بعد صدور المرسوم المتضمن إنشاء جامعة الاستعراب في روسيا، وكان أول أستاذ لكرسي اللغة العربية في هذه الجامعة هو الأستاذ (بيرندت) عام 1805/ وكان يمثل "التقاليد السامية الأوربية الغربية، وهو من رجال الدين المسيحي" (5). أي أن الاستعراب الروسي كان في بدايته ما يزال يعتمد على الخبرات الأجنبية القادمة من أوربا الغربية. لكنه ما لبث أن تجاوز ذلك إلى خبرات محلية وشرقية.

فقد تم إنشاء قسم للغة العربية في جامعة (قازان) في جمهورية (تتارستان) وأشرف عليه مجموعة من الأساتذة العرب: فقد درس فيه (أحمد بن حسين المكي) منذ عام 1852-1854/ ثم العربي الفلسطيني (بندي جوزي صليبا الخوري) منذ عام 1871-1942/.

وقد عاش طوال حياته في روسيا، وتتبع أهميته من مؤلفاته الكثيرة ومقالاته وترجماته لعدد من المصادر العربية (6).

في عام 1829/ تأسست جامعة (بطرسبورغ) واستلم كرسي اللغة العربية فيها العلامة المصري (محمد عياد الطنطاوي) بين أعوام 1847-1861/ (7). وقد أبدى (كراتشكوفسكي) رأيه بهذا الرجل العلامة قائلاً: "تسألني عن هذا الرجل الوسيم بخلته الشرقية وعامته البيضاء ولحيته السوداء كالقطران، وعيونه الحية المتقدة شراً ووجهه المعبر الذكي المحترق لا بشمسنا الباهتة.. الآن تستطيعون أن تتحدثوا بالعربية دون أن تسافروا من بطرسبورغ" (8).

وتعاقب بعد (الطنطاوي) على جامعة (بطرسبورغ) عدد من الأساتذة العرب، لتدريس اللغة العربية فيها. فكان منهم: (سليم نوفل 1828-1902) و(عبد الله كلزي 1829-1912) وهو من حلب.

ولم يقف الأمر عند هؤلاء فقط، بل تجاوزهم إلى شخصيات فكرية نهضوية عربية لعبت دوراً هاماً في تاريخ الحركة الفكرية العربية الحديثة، نذكر منهم: جمال الدين الأفغاني (1838-1847) والأديب والصحفي رزق الله حسون (1825-1880). وقد تحدث (كراتشكوفسكي) عن (رزق الله حسون) قائلاً: "كان خطاطاً وسياسياً وشاعراً ومغامراً، وقد كان قومياً عربياً، فخاف على حياته وهرب من تركيا إلى روسيا عبر بلاد القوقاز.. وكان (حسون) قد قضى عدة أعوام في

173

المواضع:

- (10) - نفس المصنر، ص 144.

المصادر والمراجع

- □ □